

مقدمة

لماذا اخترت «البشرى» ؟

قد يسألني القارىء لماذا اخترت «البشرى» ، هو ضوعها لبعضك ، ولماذا أثرته بنيتائى ، لم تؤثر غير ، من السكتاب المحدثين ؟ وقد يتصور القارىء فى سؤاله فيقول : لماذا اخترت الأدب الحديث موضوعاً لبعضك ؟ ولماذا لم تختار الأدب القديم ؟ ولكنى أرى الإجابة عن هذين السؤالين يسيرة لا تحتاج إلى مشقة أو عسر . ومن حق القارىء أن يعرف هذه الإجابة ، ومن واجب الباحث أن يميز السبيل أمام القارىء وييسره بمقومات البحث العلمى الذى يقبل على قراءته . ويرجع اختيارى للبشرى إلى سنوات بعيدة ، فقد كنت منذ نعومة أظفارى شغوفاً بالأدب ، نزوعاً إلى المعرفة ، عكوفاً على العلم ، وكان أبى رحمه الله يختار لى بعض كتب الأدب لأطالعتها ، وكان من بين هذه السكتب كتاب « المرأة » ، وكتاب « المختار » ، بجزأيه .

ويشهد الله أنى كنت أعجب بكتابة «البشرى» ، أيساً إعجاب ، وكنت ألهس فى أسلوبيه هذه السخرية اللذبة التى كانت تبعث فى نفسى كثيراً من الغبطة ، وتبعث فى قلبى كثيراً من النشوة ، وتبعث فى صدرى كثيراً من الانشراح . ويشهد الله أن ابتسامه عريضة كانت ترسم دائماً

على شفتى عقب قراءتي لوصفه ، لزيور وشكله الخارجى ، وأوضاعه الهندسية ، وقطاعاته ومساقطه الأفقية ، على حد تعبيره ، وكنت أعقد مقارنة بين وصفه هذا ومعارفنى الأولى فى الهندسة ، كما كانت هذه الابتسامة العريضة ترسم على شفتى أيضاً عندما كنت أقرأ حديثه عن الدكتور « على إبراهيم » شيخ الجراحين ووصفه لأصابه (التى تسرق الكحل من العين) على حد تعبيره ، والى ترشده أن يكون (نشالا) من الطراز الأول لخطتها .

يشهد الله أنى كنت أعجب أشد الإعجاب بكتابة هذا الرجل ، وأقبل على قراءة كتبه كل الإقبال . وكنت أحفظ كثيراً من تعابير الجميلة ، وأسلوبه العذب ، وأرجع إليه بين الحين والحين كلما احتجت إلى كتابة موضوع فى الانشاء ، وكما أردت أن أظهر براعتى فى الكتابة أمام أستاذ الانشاء ١١

وتمضى الأيام قدماً ، وإذا بى أقابل فى مرحلة التعليم الثانوى أستاذاً لى يعجب أشد الإعجاب بالشيخ « عبد العزيز البشرى » يدعو الطلبة إلى حفظ بعض المختارات من أدب « البشرى » مثل رثائه « لشوقى » أمير الشعراء وللمرحوم « أحمد عبد الوهاب » .

فكنت من أوائل الطلبة الذين يحفظون مختارات « البشرى » وكنت أجد فى ترديد هذه لذة ما بعدها لذة ، ومتعة ما بعدها متعة ، وقد

ظلت هذه اللذة وتلك المتعة تعاودني فترة طويلة من حياتي ، ولست أشك في أنها لا تزال تعاودني كلما حاولت أن أسترجع هذه المختارات في خاطري .

فأما وصلت إلى مرحلة التعليم الجامعي كانت كتب «البشرى» من الكتب الأولى التي أعكف على قراءتها . وقد أتيحت لي في هذه المرحلة أن أدرس «البشرى» دراسة وافية ، كما اجتاحتني رغبة ملحة في أن أعرف كل صغيرة وكبيرة عن حياته ، فلم تكن سيرته ترد على لسان أحد من أساتذتي حتى أسأول أن أستخلص منه بعض ما يعرفه عنه ، إن لم يكن كله ، وقد زاد الأمر حدة وقوة عندما اتصلت بعد ذلك بنجله الأستاذ «حسين البشرى» عن طريق الإذاعة تعاودت منه في كثير من المراجع فكان كثيراً ما يحدثني عن أبيه ، ويروي لي نواذره وطرائفه . ثم عرفت في هذه الفترة نجله الآخر الأستاذ «عبد الحميد البشرى» الذي لم يدخر وسعاً ، ولم يأل جهداً في سبيل إشباع رغبتي الملحة في معرفة الكثير عن الشيخ «البشرى» .

ونمت عاطفتي «للبشرى» مع الأيام شيئاً فشيئاً ، ثم أتيحت لها أن تتجاوز يوم أن عرض على أستاذي الجليل الأستاذ «عبد الوهاب حمودة» تقديم رسالتي في أحد الموضوعين أدب «البشرى» أو أدب «الرافعي» .

وكنت أعجب «بالرافعي» كثيراً ولكنني وجدت «الرافعي» عنيفاً في خصومته ، عنيفاً في نقده ، ووجدت نقاده لا يقلون عنه عنفاً ،

ولاشك . ووجدت إبداء رأي في هذه المصوغة قد يشير بعض الفتن
بين أشخاص أحياء ، وأدباء يعيشون بيننا ، فآثرت السلامة . . .
واخترت «البشرى» لأنه كان محبوباً من الجميع ، ولأن أدبه لم يكن مثار
جدل ونقاش شديد كالرافعي ، ولأن الروح المصرية (القحة) إن
صنع هذا التعبير ، تتمثل فيه أصدق تمثيل أكثر من غيره .

ولكني ، مع هذا كله ، لست أطمأن ، ولا أحب أن أطمأن ، وإن
أهدأ ، ولست أحب أن أهدأ ، دون أن أكتب عن «الرافعي»
في وقت ما ، وأرجو أن يكون ذلك قريباً . . .

ولقد حفر همتي على البحث أن هذا الموضوع في الأدب المصري
الحديث . فنحن في حاجة ماسة إلى أن نهتم بدراسة الأدب المصري
الحديث ، ونعتني بعرضه ونقده ، ونحاول أن نأخذ بناصره .
وينبغي أن يكون لنا طابع خاص مميز ، لا أن نكون عالة على غيرنا
من الأمم . ولقد ظالمنا فترة طويلة من حياتنا ، ولا تزال ، مصيباً لكثير
من الثقافات الأجنبية ، والحضارات الغربية ، وأصبحنا ولا تزال
أبواباً لها ، ندعو لها حيثما كنا ، وأينما وجدنا ، حتى نسينا أو أنسينا
شخصياتنا وحتى أوشكنا أن نكون (كقطعة الصصال) تشكنا
الظروف كيفما شاءت ، دون أن نستطيع أن نحافظ على كياناتنا
ومقومات شخصياتنا .

إن مصر ، كانت ولا تزال ، كعبة تلتقي فيها الثقافات الشرقية والغربية

فنتج عن ذلك وجود فريقين من الأدباء ، فريق المتخصصين للأدب العربي في تفكيره وأسلوبه ، وفريق الذين ينقلون الثقافة الغربية حارلين بها إلحاقنا بأوربا .

أما الأدباء المصريون ، سداة ولحمة ، الذين نجد في أعمالهم الأفكار المصرية العميقة ، والإحساس المصري الصميم ، وناس في كتاباتهم الصور المصرية الصادقة لما يختلج في نفوسنا من عواطف ، وما يعتمل في صدورنا من مشاعر ، فإننا نفتقد لهم فلا نكاد نجد لهم .

وكان «البشرى» أحد هؤلاء الأدباء المصريين القلائل الذين تتمثل في كتاباتهم الروح المصرية الصحيحة . وتتجلى في نقدااتهم البيئة المصرية الصميمية . وتبدي في أساليبهم الصور القومية الصادقة التي نفتقر إليها في الأدب المصري الفصيح ، وإن كنا لانحرم منها في أدبنا الشعبي الدارج . كما أن «البشرى» كان يمتاز بروح السخرية والفكاهة ، وهذه سمة بارزة امتاز بها المصري على مر الأيام وتعاقب السنين . فهو بطبعه فكاهة المجلس ، يميل إلى التشكيت والتبكيك .

ويرجع الباحثون هذه الظاهرة إلى عوامل عديدة ، أهمها العامل السياسي^(١) ، فقد ظلت مصر فترة طويلة من الزمن تحت سيطرة المحتلين ، فولد ذلك في النفوس حب السخرية والتهكم ، ومحاولة التفرج عن المموم بالنادرة الظريفة ، أو الملاحظة الرقيقة ، أو النكتة العذبة . وكان بعض الحكام على النقيض من ذلك ، ينسبطون في الحياة ،

(١) مقدمة الحركة الفكرية ، الدكتور عبد اللطيف حمزة .

ويساعدون على إباحة السرور والتمتع ، ونشر أعلام الحبور والاعتماد على العامة بالأموال ، ويكثرون من إقامة الأفراح والاحتفالات ، كما حدث في عهد « إسماعيل » الذي أضفى على الشيخ « الليثي » و« عبده الحمولي » عطفه ، فانتشر في النفوس روح المرح والميل إلى التهمك^(١).

مهما يكن من شيء ، فقد كان « البشري » يمثل الشخصية المصرية النزاعة إلى التهمك والفكاهة ، الميل إلى السخرية والمرح . ولا غرو إذن أن نهتم بدراسته ، وأن نسعى في سبيل إحياء تراثه الأدبي ، وننفض عنه غبار السنين التي لا تزيد على العشر ، ولسكنه غبار كثيف لم يحاول أن يزيحه أحد من الباحثين . ولولا أن الله قيض له بعض الأصدقاء الأوفياء كالدكتور « طه حسين » لما ظفرتنا بكتابته « قطوف » بعد موته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى .

ولقد اهتمت كلية الآداب في السنوات الأخيرة بدراسة الأدب الحديث ، فخصصت كرسيّاً لهذا الغرض أطلقت عليه (كرسي شوقي) فأحسنّت صنعاً بهذا العمل . وليس هذا البحث إلا إحدى ثمار تلميذ صاحب هذا الكرسي العظيم . . . ! !

(١) الدكتور أحمد ضيف ، المقتطف سنة ١٩٢٦ ص ٤٠٢

منهج البحث

قد يسألني القارىء - بعد ذلك - ما منهجك في هذا البحث ؟ .
ومن حق القارىء أن يسألني هذا السؤال ، ومن واجبي أن أعرض
عليه الإجابة ، وهي إجابة سهلة يسيرة لا تحتاج إلى مشقة أو عسر
كذلك ، فقد سالت في هذا البحث منهجين ، لا منهجاً واحداً . ولم
ألجأ إلى هذين المنهجين إلا عندما شعرت أن منهجاً واحداً لا يمكن
أن يوصلني إلى النتيجة المنشودة ، ولا يمكن أن يميّط اللثام عن حقيقة
« البشرى » وأدب « البشرى » إمّاطة يمكن أن أرضاها وترضاها أنت
كذلك . . . لا شيء إلا لأنها ستكون ناقصة مبتورة ، لا تشفى غلة ،
ولا تبلى صدى . . .

أما المنهج الأول فهو المنهج التاريخي . . . فقد أنفذت أتعقب
سيرة « البشرى » من أصولها ، وأدرس بيته أباً عن جد ، وأجمع ما قيل
أو كتب عن أسرته ، وأرجع إلى ملفاته الخاصة ، تارة في وزارة المالية ،
وتارة في مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وتارة في ديوان المحاسبة .
وليس من شك في أنك لست في حاجة إلى أن تعرف مقدار الصعوبة
التي يكابدها الإنسان في سبيل الاطلاع على « ملف » من « الملفات »
فلا بد من أن يكتب الطالب طلباً ، ولا بد أن يحدد الغرض من

الإطلاع على هذا الملف ، ولا بد من أن يقدم هذا الطلب إلى رئيس
مسئول ، ولا بد من أن يحصل هذا المسؤول ذلك الطلب إلى من هو
أكثر مسؤولية منه ، ولا بد هذا الأخير من أن يضع الطلب على
مكتبه يومين أو ثلاثة حتى يبت فيه ، أو يرفعه إلى الوزير ، أو يرد
الطالب في أدب بحجة أن الإطلاع على الملفات سر من أسرار الدولة !!
وهكذا صادفت في سبيل الإطلاع على ملفات «البشرى» صعوبة
أى صعوبة ، ومشقة أى مشقة ، حتى استطعت أخيراً أن أطلع عليها
وأستخرج منها بعض الوثائق التاريخية التى يمكن أن تفيدنى فى بحثى
العلمى ، أو تلقى أضواء على شخصية أديبنا «البشرى». ولولا أن الدكتور
«منصور فهمى» ، والأستاذ «عبد المتعال الصعیدی» قد مهدا لى فى
المجمع اللغوى السبيل للإطلاع على ملف «البشرى» بالمجمع لصادفت
تلك الصعوبة التى صادفتها فى وزارة المالية وديوان المحاسبة الذى تحفظ
فيه جميع الملفات القديمة قبل ترحيلها إلى دار المحفوظات بالقلمة .
ولقد ساعدتني هذه الملفات ، كما قلت ، على اتباع المنهج التاريخى
فى البحث ، إلى جانب ما جمعته من أقوال نقاده ومعاصريه الذين
تناولوا أحياته وأدبه بالبحث والتعليق . ومكننى هذا المنهج التاريخى
من تعيين مكان عمله الأدبى فى خط سير الأدب الطويل ، وتتبع
تاريخ البيئة الثقافية والسياسية والاجتماعية لمعرفة مدى تأثير «البشرى»
بها أو أثره فيها .

ولسكن هذا المنهج التاريخى لا يمكن أن يوفى دائماً بغرض الباحث

في الأدب . فهو موضوع التاريخ هو الماضي ، ماض لم يبق منه إلا أمارات
أو أنقاض برأسطتها يهاد بعشه . أما موضوع الأدب فهو الماضي
أيضاً في هذه الحال ، ولكنه ماض باق . فالأدب من الماضي ومن
الحاضر معاً (١) .

والمؤرخ عندما يتناول وثيقة يحاول أن يقدر العناصر الشخصية
فيها لينحيها ، ولكن هذه العناصر الشخصية هي التي تحمل القوة
ال عاطفية والفنية في المؤلف الأدبي . وإذن فمن الواجب أن نحفظ
بها . وفي كل مرحلة من المراحل لابد لنا أن نتدقق النصوص
التي جملناها ، وأن نحلل خصائصها الشعورية والتعبيرية . ومن ثم كانت
(الذاتية) في تقدير العمل الأدبي هي أساس الموضوعية فيه ، ومن
العبث محاولة تجريد الناقد من ذوقه الخاص ، وميوله النفسية ،
واستجاباته الذاتية لهذا العمل .

والنظرة التاريخية تضع العنصر الشخصي في موضعه ، وتجرد
الناقد من أهوائه . ومن هنا كان المنهج التاريخي لا يستطيع أن يقف
وحده على قدميه في هذا المضمار ، فالخصائص الحسية والفنية التي تميز
المؤلفات الأدبية هي (وقائعا الخاصة) ونحن لا نستطيع دراستها
دون أن تحرك مشاعرنا وتؤثر في أحاسيسنا وأذواقنا .

أضف إلى ذلك أن المنهج التاريخي يعتمد إلى معرفة الفروق بين
الوقائع والتماس المفارقات بين الأحداث . وعلى هذا النحو نكون

(١) منهج البحث في الأدب واللغة ، لانسون تعريب الدكتور محمد مندور ص ٢٠

نحن أمعن في التاريخ من المؤرخين أنفسهم لو سلكنا هذا المسلك في أبحاثنا الأدبية . فالفروق التي يهتمسها المؤرخ بين الوقائع العامة نصرف نحن فنلتمسها بين الأفراد . والتاريخ كما يقول « لانسون » لا يعنى بالأفراد إلا في الحدود التي يمثل فيها هؤلاء الأفراد جماعات أو يغيرون اتجاهات (١) .

ونحن إذا ما أردنا أن ندرس « البشرى » أو غير « البشرى » معتمدين على المنهج التاريخي ، فلا بد من تتبع تأثير الكاتب في الحياة الأدبية والاجتماعية . ومن ثم تأت دراسة الوقائع العامة ، وفنون الأدب ، وتيارات الأفكار ، وحالات الذوق والاحساس . . . وهذه كلها لا يمكن أن يحصرها المنهج التاريخي فلا بد إذن من الاعتماد على منهج آخر يكمل هذا المنهج ، ألا وهو المنهج الموضوعي أو (العمل) على حد تعبير « لانسون » .

وعماد هذا المنهج الرجوع إلى النصوص ومعرفة تأثيرنا الذاتي بها ، وهو تأثر منبعث من الذوق وتجاربنا الشعورية . . والفنية السابقة ، ثم النظرة الموضوعية إلى القيم الشعورية . . والقيم التعبيرية لهذا العمل . والتأثر التلقائي ، والتحليل ، المتروى وسائل مشروعة ولازمة ، ولكنها غير كافية ، فلا بد لنا لتحقيق هذا المنهج الأخير من استخدام وسائل أخرى ، كمعرفة بعض علوم أو فنون أخرى ، مثل الموسيقى والغناء الذي تحدث عنه « البشرى » .

(١) منهج البحث في الأدب واللغة ص ٢٣

ثم لا بد أن نوجه لأنفسنا هذه الأسئلة التي اعتبرها «لانسون»
عماد المنهج العملي وهي: هل نسبة النص صحيحة؟ وهل النص خال من
الانقص أو التغير أو التشويه؟ وما تاريخ تأليفه؟ وما تاريخ نشره؟ وكيف
تغير من الطبعة الأولى إلى الطبعة الأخيرة؟ وكيف تكون النص
منذ أول تسويد إلى الطبعة الأولى؟ وعلام تدل التسويديات؟ وما قيمة
النص المخوية والأدبية؟ وما أثر ذلك النص في البيئة الأدبية؟ ..

ولقد رجعت في هذا البحث إلى كتب «البشرى» المطبوعة، ولم
أستطع الوصول إلى مسوداته، لأنه كان كما يقول في صدر المختار
يزق أو يحرق أصول مقالاته. وهذه الخصلة حالت دون عقد
مقارنة بين المخطوط والمطبوع، ولكن استطعت أن أطلع على خطابات
كتبها بخط يده إلى ابنه «حسين» وهو في لندن، وأكثر هذه الخطابات
تدور حول مسائل خاصة، ولكنها تصور روحه المرححة، وميله
للسخرية والتهكم أصدق تصوير، فقد طلب «حسين» من أبيه ذات
مرة أن يرسل إليه نقوداً فأجابه والده بقوله: «إنه سيرسل له
النقود المطاوعة ولن يسأله عن أوجه صرفها... ولو قدر لحسين
أن يعود من إنجلترا وهو ماش! ١١١» ..

ولقد حاولت دائماً أن أرجع إلى النص في مظانه الأولى، تارة في
الطلال، وتارة في الأهرام، وتارة في الكشكول وتارة في السياسة وتارة
في الرسالة أو الثقافة. وأتبع لي أن أكون حبيس مكتبة القلعة على رضى منى
فترة طويلة من الزمن يشهد الله أنها كانت من أجمل فترات حياتي ..

وتلمست أثر هذا النص في النفوس وما جرت به الأقلام في نقده ، حتى إذا تم لي ذلك نظرت إلى نوع هذا النص ، أو هذا الأثر الأدبي ، وإلى قيمه الشعورية ، وإلى قيمه التعبيرية ، ومدى ما تنطبق عليه الأحوال الفنية لهذا الفن من الأدب .

ولم أغفل الناحية النفسية في منهج البحث وسأولت أن أعرف دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه ، وحملت (موضوعية) النسكته عند « البشرى » تحليلاً نفسياً دقيقاً ، وهو تحليل يعتمد على الأسس النفسية التي شرحها (الدكتور جون ويزدم) في مقاله بمجلة علم النفس .

فهذا البحث إذن لا ينساق وراء المنهج التاريخي انسياقاً أعمى ، ولا ينتقاد للمنهج الموضوعي أو العمل انقياداً لارجعة فيه ، إنما يجمع بين محاسن هذين المنهجين وي طرح مثاليهما دون أن يغفل الناحية النفسية في الموضوع .

البيئة العامة التي عاش فيها «البشرى»

يقولون إن الإنسان ابن بيئته . ولست أشك في أن هذا القول صحيح كل الصحة ، مصيب كل الصواب . وهذه البيئة قد تكون طبيعية ، وقد تكون معنوية ، ولنا الآن في معرض الحديث عن البيئة الطبيعية التي نشأ فيها «البشرى» كوقع بلاده وتضاريسها ومناخها ، وما إلى ذلك ، إنما نكتفي بعرض ملامح البيئة المعنوية أو العامة التي نشأ فيها «البشرى» ونعني بها البيئة السياسية ، والبيئة الاجتماعية ، والبيئة الثقافية . . .

البيئة السياسية :

نشأ «البشرى» في أعقاب الثورة العراقية ، وتفتحت عيناه على الاحتلال الإنجليزي ، وأتيح له أن يشهد وهو صبي ذلك الصراع الوطني المستمر في سبيل الاستقلال ، وظل يرقبه وهو يدرج من طور الشباب إلى طور الرجولة ، حتى اندلعت الثورة المصرية عام ١٩١٩ وبدأ كفاح «مسعد زغلول» في سبيل الوصول إلى الأمان الوطنية والأهداف القومية . فخاض «البشرى» كغيره هذه المحن السياسية التي ألمت بمصر ، وكان موقفه منها فيه كثير من التحفظ والاحتراس إلى أن توفاه الله عام ١٩٤٣

ويظهر أن الشيخ «البشري» كان يميل كل الميل في مطالع حياته إلى الشيخ «علي يوسف» ومذهبه السياسي، وآية هذا ما أعده على الشيخ «علي يوسف» من مدح وإحراء وتبجيل.. اسمعه يقول :

«كان بعد رجلا شديد العقل، قوى النفس، شديد العزم، وافر الشجاعة، لا تتعاضده قوة خصم بالغة ما بلغت قوة ذلك الخصم وبأسه».

وتأمل رأييه فيه كسياسي كبير، فإنتى لا أعرف رجلا سياسياً عظيماً كان أقل الناس أنصاراً وأكثرهم خصوماً، كما كان الشيخ «علي يوسف» وخصومه على كثرتهم. لقد كانوا من جميع الطبقات، وكانوا من جميع الطيئيات، وإنهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب وكلهم عامل على إسقاطه. جاهد ما أمتد به الجهد في هدم «المؤيد» فدك عليه الأقلام والألسن من كل حياته يدفعه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونها في غير هوادة ولا إشفاق؛ ثم إذا الشيخ ينجمع وإذا هو يشرح السلم شرع الرمح الرديني، وإذا هو يطعن الطعنة البكر ما هنا مرة وما هنا مرة، فلا يصيب إلا السكلى والمفاصل، وإذا هو لاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، وإذا «المؤيد» يرن في البلد رنينه بعد ما تردد تأوّه وطال أنينه» وكان الشيخ «علي يوسف» من زعماء الحزب الوطني قبل إعلانه ولسكنه لم يلبث أن اختلف بعض الاختلاف مع الزعيم «مصطفى كامل» ورماه بالتطرف وألف مع بعض أصحابه الحزب الوطني

المعتدل . وقد حدث هذا الانقسام عام ١٩٠٦ عند إعلان مبادئ
الحزب الوطنى حتى كتب مراسل التيمس فى مصر بتاريخ ٢٠ نوفمبر
سنة ١٩٠٦ كلمة عن الأحزاب السياسية جاء فيها ما يلى :

«إن الحرب الصحافية التى دارت رحاها بين ما يدعى أحزاب
الوطنيين لا تزال قائمة بحدة وشدة ، أما الحزب الوطنى الرسمى الذى
تألف سنة ١٩٠٦ فتعد انقسم قسمين : حزب المتطرفين برئاسة
« مصطفى كامل » ، وحزب المعتدلين برئاسة « على يوسف » ..

ونشرت جريدة المؤيد القانون الاساسى لحزب «الإصلاح على
المبادئ الدستورية» وهو حزب الشيخ «على يوسف» وكان « أحمد
حشمت باشا » و« حسن رفقي باشا » و« كيلين للحزب » و« أحمد حافظ
عوض أفندى » مديراً للأعمال و« محمد مسعود أفندى » سكرتيراً
و« يوسف بك صديق » أميناً للصندوق .

ولم نقرأ اسم الشيخ «البشرى» بين أعضاء هذا الحزب ولكن
يظهر كما قلنا أنه كان يقدره كل التقدير لما أضفى على الشيخ
« على يوسف » ومذهبه السياسى من آيات التكريم والإجلال .

وقد أنشئ حزب الشيخ «على يوسف» كما جاء فى «المؤيد» فى
العدد ٥٣٥١ بتاريخ ٢٦/١٢/١٩٠٧ للغرضين الآتين :

الأول : تكوين رأى عام من المصريين مبنى على المبادئ
المذكورة وهى المبادئ التى قبلها شعاراً له فى الوطنية .

الثانى : السعى فى تنفيذها وبذل الجهد فى أن تكون الأعمال
فى إدارة البلاد منطبقة عليها أو منسوجة على منوالها .

أما هذه المبادئ المذكورة فهى :

١ - تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها فرمانات الشاهانية
لاستقلال مصر الإدارى .

٢ - الاعتماد على الوجود والتصریحات التى أعلنتها بريطانيا
العظمى عند احتلالها للقطر المصرى ومطالبتها بتحقيق هذه الوجود .

٣ - المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق
بالمصريين والمصالح المصرية .

٤ - أن يكون التعليم الإبتدائى عاماً ومجاناً .

٥ - أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى جميع المدارس
المصرية .

٦ - أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى
الكفاءة والاستحقاق مع تقليل عدد الأجانب بقدر الامكان حتى
يتأتى للمصريين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فيما بعد .

٧ - أن تكون محاكمة الأجانب جنائياً أمام المحاكم المختلطة .
وذلك إلى أن يتم توحيد المحاكم المصرية لجميع سكانها تحقيقاً لأعظم
مبدأ فى إقامة العدل بين سكان البلد الواحد وهو المساواة أمام القانون .

على أننا لا يمكن أن نعتبره «البشرى» من مؤسسى الحزب الوطنى
أو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وإن أظهر ميلا إلى
الحزب الأخير، وهو حزب الشيخ «على يوسف» كما أن المعاصرين لهذه
الفترة يقولون إن الشيخ «البشرى» كان من الأصدقاء الملازمين للشيخ
«على يوسف» وكان الجميع يجلسون فى (بار اللوام) حيث يتبادلون الآراء
السياسية تارة، ويتندرون بالنوادر الأدبية والطرائف تارة أخرى.
وقد قص لى أحد (الجارسونات) الأحياء فى بار اللوام القديم أن
الشيخ «البشرى» كان يحرص كل ليلة على قضاء سهرته فى بار اللوام مع
أقطاب الحزب الوطنى ومن بينهم الشيخ الكبير «على يوسف» .
ويُنقل «مصطفى كامل» إلى رحمة الله فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨
ويُنقل الشيخ «على يوسف» إلى رحمة الله فى ٢٥ أكتوبر عام ١٩١٣
ثم يشتعل أوار الحرب العظمى فى أغسطس عام ١٩١٤ وتقاسم
فيها شعوب العالم ألواناً شتى من العذاب . فمن تدمير وتقتيل فى
ميادين القتال فى البر والبحر، إلى ضنك سيامى واقتصادى شديد
بسبب حصار الموانئ وتهديد الغواصات للسفن التجارية، إلى ضرب
المدن وسكانها بالقنابل بواسطة الطائرات حتى تعاني الهدنة بين
المتحاربين فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ وتنتهى بصلح فرساي عام ١٩١٩
ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى كان «كتشنر» فى إنجلترا فاختير
وزيراً للحربية ولم يعد إلى مصر، وكان الخديوى «عباس» فى الأستانة
ويقوم «حسين رشدى باشا» رئيس الوزارة مقامه . ولم يلبث أن
ظهر ميل الخديوى عباس إلى الأتراك حلفاء ألمانيا عندما أعلنت

مصر الحرب على ألمانيا وحلفائها فأعلنت انجلترا على أثر ذلك حمايتها على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ وكممت الأفواه وقصفت الأقلام وقيدت حرية الصحافة .

وفي ٨ أكتوبر عام ١٩١٧ مات السلطان حسين ثم اختير (الأمير أحمد فؤاد) ابن الخديو إسماعيل ليكون سلطانا على مصر ، ثم ارتقى العرش في ٩ أكتوبر ١٩١٧ ولم تلبث الهدنة أن أعلنت بين المتحاربين في الحرب العظمى في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ مؤذنة بانتصار الحلفاء ، وكان المصريون قد كابدوا أثناء هذه الحرب صنوفا شتى من الشقاء والبؤس والسخرى والعوز ، وتسلبت الموظفين الإنجليز عليهم واستشارهم بمعظم الوظائف الكبرى ، مما مهد لظهور حركة الجهاد الوطنى فذهب فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ثلاثة من الزعماء الوطنيين وهم «سعد زغلول» و«على شعراوى» و«عبدالعزیز فهمى» لمواجهة معتمد انجلترا (سير ريجنالد ونجت Sir Reginald Wingate) بالمطالب الوطنية والسماح لهم بالسفر إلى لندن لعرض قضية استقلال البلاد، وكذلك طلب «رشدی باشا» رئيس الوزارة وزميله «عدلى يكن باشا» وزير المعارف السفر لمفاوضة الحكومة الانجليزية في مصير مصر .

ثم عمل الوطنيون على تأليف (الوفد المصرى) برئاسة «سعد زغلول» وأخذوا من الشعب توكيلا له للمطالبة باستقلال البلاد . وفي ٩ مارس ١٩١٩ أرادت السلاطة الإنجليزية أن تشمل هذه الحركة

الفتية الناهضة فألقت القبض على أربعة من كبار الزعماء وهم « سعد زغلول، واسماعيل صدقي، ومحمد محمود، وحمد الباسل » ونقلتهم إلى جزيرة مالطة، وكانت الحكومة الإنجليزية قد عينت لجنة برئاسة لورد ملنر (Milner) للبحث في الأسباب التي أدت إلى ثورة المصريين ولاقتراح الدستور الذي يلائم حالة البلاد تحت نظام الحماية، ولكن اللجنة عندما حضرت إلى مصر قاطعها المصريون، وفي هذا يقول الشيخ «البشرى» :

« وهبط ملنر مصر والوفد قائم في باريس ودارت اللجنة ها هنا وهما هنا لعل أحداً يعاطيها أو يقاومها، فاستمسك الناس كلهم عنها ولم يواتها منهم أحد، فعادت في النهاية وبالثلثة أعلام، رشدى وعدلى وثروت، فصارحوها بأنها إن أرادت الجدد فلا تفاوض في شأن مصر غير الوفد، فالتهمض إلى باريس فهناك الحديث، أما في مصر فإن تجد — مهما طال المقام — ثلاث قطط تحدثها في شأن البلاد (١) ... »

ولكن الخلاف في شأن رئاسة المفاوضات مع الحكومة الإنجليزية لم يلبث أن دب بين « سعد زغلول » وأصحابه الذين أطلق سراحهم في أبريل ١٩١٩ وقصدوا إلى باريس للدفاع عن قضيتهم في المؤتمر الدولي المنعقد في هذه الفترة، وبين « عدلى يكن » واستمحكم

الخلاف بين الطرفين عندما تولى «عدلى يكن» الوزارة في عام ١٩٢١
وتمسك بحقه في رئاسة المفاوضات ، ولكن مفاوضات عدلى من
لورد كرزون (Curzon) لم تشر شيئاً فاستقال عدلى من الوزارة .
وإن المتتبع لما كتبه «البشرى» عن «سعد زغلول و عدلى يكن»
يلاحظ أنه يرى «سعداً» زعيم الأغلبية الشعبية تحفه القلوب من كل
جانب فهو «السمع ، ملء القلب ، ملء البصر»^(١) . وكيف لا يرتفع
على مذهب حجة الناس وقد رفعه الله على الناس^(٢) . أما «سعد»
الوزير (الناظر) فلقد كان الأسد حق الأسد ، وإن شئت تصبيراً
أشد وأقوى : قلت كان الرجل كل الرجل^(٣) ويرى «عدلى يكن»
تفقصه الزعامة الشعبية الحقة فهو ما برح (ابن ذوات) قليل الاتصال ،
بالناس ، شديد التحفظ بنفسه عنهم لا يزورهم ولا يستزيروهم
ولا يستريح إلى مجالستهم^(٤) .

كما أن المتتبع لما كتبه «البشرى» في المرأة يلاحظ أنه قد جرى
بقلمه في الحديث عن «إسماعيل صدقي ومحمد محمود» وقد نفيا مع
«سعد» إلى جزيرة مالطة .

غير أن هذه الظواهر كلها لا تؤكد لنا انضمام «البشرى» إلى حزب

(١) المرأة ص ١

(٢) المرأة ص ٤

(٣) قطوف ج ١ ص ٧١

(٤) المرأة ص ١٩

الرفد المصري أُر إلى اعتناق مبادئه، إنما كان رجلاً متحفظاً في حياته
تجره الصداقات أولاً وقبل كل شيء إلى الحديث عن الزعماء
السياسيين دون استثناء

وقد ظلت الحالة السياسية في مصر مضطربة إلى أن تفاوض
لورد اللنبي (Allenby) وعبد الخالق ثروت باشا، واستقر رأيهما
على حل قبله اللنبي الذي سافر إلى إنجلترا ثم عاد إلى مصر. وفي
٢٨ فبراير ١٩٢٢ أعلن أن الحماية على مصر قد رفعت واحتفظت
إنجلترا بالنقط الأربع الآتية :

- ١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر .
- ٢ — الدفاع عن مصر ضد أي تدخل أو هجوم أجنبي .
- ٣ — حماية الأقليات ومصالح الأجانب .
- ٤ — السودان .

وعلى هذا الأساس تألفت «وزارة ثروت باشا» وتألفت لجنة
الثلاثين من كبار رجال القانون برئاسة «حسين رشدي باشا» لوضع
الدستور، وأعلن الملك «فؤاد الأول» استقلال البلاد وتحويل
السلطنة إلى مملكة في ١٥ مارس عام ١٩٢٢ .

وكلف الملك «أحمد فؤاد» اللجنة الثلاثينية بوضع دستور الأمة
الجديد، وأمر بإنشاء دار جديدة للبرلمان بجانب قاعة الجمعية التشريعية
القديمة، ووضع حجر أساس البرلمان الجديد في ٢٤ أغسطس ١٩٢٢

بم حضور « عبد الحميد سليمان باشا » وكيل وزارة الأشغال وتبادلت
مصر مع سائر الدول الممثلين السياسيين .

وفي الساعة العاشرة ليلا من يوم ١٩ أبريل ١٩٢٣ أعلن الدستور
مصر في ، ولما زفت جريدة الأهرام إلى الأمة هذه البشرى
سألت الله أن يجعل الدستور (فاتحة خير وإسعاد للأمة وبنيها ..) .
وذلت لجنة الدستور جميع الصعوبات التي اعترضت طريقها
إلا أنها اصطدمت بالصخرة السودانية وبعناد السلطات البريطانية ،
وكان الدستور فرصة ذهبية لإعلان اتحاد مصر والسودان رسمياً
واعتباره جزءاً لا يتجزأ من الأراضي المصرية ..

وقد صورّ البشرى في كتاباته هذه الفترة من تاريخ مصر فقال :
« وسرعان ما آذنت انجلترا الدول بانتهاء حمايتها على مصر ،
وسرعان ما آذنها الملك باستقلال البلاد وشرع « ثروت باشا »
يسنّ للدولة دستورا قويا لأن مصر الفتاة تأنف العيش إلا في كنف
برلمان . وهذا البرلمان يعمل وسيعمل إن شاء الله حتى تحيا مصر
أعلى الحياة (١) .. »

وقد اشترك البشرى في لجنة وضع الدستور ، وكان عليه أن يهتم
بالصياغة الأدبية للأساليب القانونية. والواقع أن اللجنة التي وضعت
الدستور عام ١٩٢٣ لم تكن تمثل الشعب ، إنما كانت لجنة شكلتها

(١) المرأة : ص ٣٥ للأستاذ عبد العزيز البشرى .

الحكومة بعد أن رفضت الأحزاب المساهمة في هذا العمل وإن كانت هذه اللجنة مكونة من ٣٠ عضواً ممن يفهمون المسائل القانونية والفقهية، وكان فيها بعض رجال الدين والسياسة ورؤساء العشائر، وبعض المصريين ممن اشتهروا بين قومههم (١)

وقد ظل هذا الدستور الذي اشترك «البشرى» في وضع صيغته الأدبية قائماً فقامت الانتخابات على أساسه عام ١٩٢٣ وأوقف العمل به بعد حياة برلمانية مقبلة سنة ١٩٢٨، وأعيد وألغى عام ١٩٣٠ وحل محله دستور رجعي عرف باسم دستور «صدق» سنة ١٩٣١، ثم ألغى هذا في وزارة «نسيم باشا» الأخيرة بفضل تضحيات الأمة وكفاحها وعاد الدستور الأول وقامت الانتخابات في ظله عام ١٩٣٦ وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة من صباح يوم ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٢ أعلنت الثورة سقوط دستور عام ١٩٢٣ ونادت بدستور التحرير ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وفي ليلة ١٢ يناير عام ١٩٥٣ أذيع مرسوم بقانون بوضع دستور جديد للدولة يتفق وأهداف الثورة الوطنية الأخيرة، ويحقق ما تنشده البلاد من حياة سلمية مستقرة، وألفت لجنة لوضع مشروع الدستور من خمسين عضواً.

(١) السياسة ونظام الحكم، للدكتور أحمد سويلم العمري، ص ٣٤٣

وعندما تمزق الوفد المصري وخرج من زمرة «عدلى يكن»
و«محمد محمود» و«المسكباتى» تألف حزب جديد عام ١٩٢٠ بزعامة
«عدلى يكن» يسمى حزب (الأحرار الدستوريين) وتتألف من سياسة
هذا الحزب فى السعى إلى استقلال البلاد عن طريق المفاوضات
كذلك ، إلا أن الحزب - خلافا لما ذهب إليه الوفد - لم ير مانعا
من تحقيق استقلال البلاد بخطوات متتابعة، وبناء على مساعاه صدر
فعلا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى استنكره الوفد المصرى لأنه
لا يحقق استقلال البلاد المنشود (١) .

كان «عبد العزيز البشرى» من أعز أصدقاء «محمد محمود باشا»
رئيس حزب الأحرار الدستوريين عقب «عدلى يكن باشا» ، وكان
كثيرا ما يقضى سهراته معه فى صحبة زعماء حزب الأحرار ونشر
كثيرا من الفصول فى (السياسة) لسان حال حزب الأحرار . ومع
أن مقالاته كانت تدور فى أغلبها حول الحياة الاجتماعية إلا أنها
كانت تظفر بقبول حسن عند الأحرار الدستوريين وغيرهم من
الأحزاب السياسية ومختلف طبقات الشعب .

صوّر «البشرى» محمد محمود زعيم الأحرار فى مرآته ... فقال
«تاريخ كبير فى سن صغيرة ، وشأن جليل فى جسم ضئيل ،
ولعل «محمد باشا محمود» لم يذرف بعد على الخامسة والأربعين

(١) الدكتور السيد صبرى جريدة الاهرام ١٩٥٢/٦/٢

ولكنك حين تقلب الذهن فيه يسرح منه إلى مدى عريض .
وحسبك أن ترى أرنبة أنفه وهو يشدها إذ يتحدث إليك أو ترفعها
له الطبيعة لتدرك أنه رجل لا يريد إلا أن يكون عظيماً أو الصحيح
لم يخلق إلا لعظيم (١) .

وهكذا كان «البشرى» صديق الأحزاب جميعاً . وإن كنا
نجد ميلاً له في أواخر أيامه إلى الأحرار الدستوريين . ولكن
مهما يكن من شيء فإننا لا نستطيع أن نعتبره حراً دستورياً ، كما
لا نستطيع أن نعتبره وفدياً ولا سعدياً ، إنما كان متحفظاً في مذهبه
السياسي ، لا يندود عن حزب ضد حزب آخر ، ولا ينصر مبدءاً
سياسياً على مبدء آخر ، ولا يهاجم زعيماً سياسياً ويمدح زعيماً آخر
على النحو الذي نعرفه في السكتابة السياسية والمقالة النزالية في
المصحف والمجلات ، وحاول «البشرى» أن يتقرب من القصر ، شأنه
في ذلك شأن كثير من الكتاب والمصحفين في ذلك العصر فنراه
يكتب عن الزفاف الملكي ، والأعياد الملكية ، والزينات الألافة ،
والثريات البراقة ، والسيوف المشرعة ، والجياذ المطهمة ، وما إلى ذلك
من أمور تحيط بجلال الملك وروعة التاج ؛ غير أن البشرى في هذه
المقالات أو الخطرات منشيء وليس بكاتب ، وتظهر في أسلوبه
الصنعة اللفظية والطريقة الجاحظية في التتميق والتزويق .

ظل «البشرى» هكذا طيلة حياته يميل إلى الهدوء السياسى والبعد
عن العواصف السياسية، غير أنه كان وطنياً بأدق معانى هذه الكلمة،
وكان يقف أمام (دنلوب) فى نظارة المعارف مدافعاً عن العربية
محاولاً رفع رايتهما فى الخافقين .

ولم يتناول « البشرى » الزعماء السياسيين بالنقد والتحليل
فى أخريات حياته كما تناولهم من قبل، ووجدناه يتجه اتجاهاً آخر
فى الأدب ويحاول أن ينشئ لنا أدباً قومياً يصور حياتنا المصرية
وأحياءنا الشعبية أصداق تصوير إلى أن اختاره الله لجواره
عام ١٩٤٣

المبيضة الاجتماعية :

شهد العصر الذى عاش فيه «البشرى» صراعاً خطيراً بين القديم
والحديث وبين التقاليد الشرقية والتقاليد الغربية، فقد كان احتلال
الإنجليز لمصر ليس احتلالاً سياسياً أو عسكرياً فحسب ، بل كان
احتلالاً اجتماعياً كذلك، فظهرت فى الحياة الاجتماعية كثير من
التقاليد الأوربية التى لم يألفها الشرقى ولم يتعودها من قبل، غير أنها
صادفت عند بعض الناس قبولا حسناً، بينما صادفت عند الآخرين
إنكاراً شديداً .

وكان لفيف من الكتاب يدافعون عن الحضارة الشرقية

والتقاليد العتيقة ، بينما انبرى لهم لفيف آخر يدافعون عن الغرب وحضارته ، ويرمون الفريق الأول بالخنول والجود .

ويعد « البشرى » من أوائل الكتاب الذين صوروا الحضارة الشرقية والتقاليد الاجتماعية أصدق تصوير ، غير أنه لم يكن مترمماً أو جامداً إنما كان يحارى الحضارة الغربية بمقدار .

ولو أنك قرأت كتب « البشرى » وتمعننت في القراءة لاستطعت أن تحصل على صورة صادقة من الحياة الاجتماعية في عصره . فهو يصور لنا نظام الخطبة والزواج ، وهو يصف لنا ليالى رمضان ، وهو يعطينا صورة واضحة عن الفن والموسيقى والغناء في عصره ، وهو يعرض لنا ما يجرى في الأفراح وعلى المآدب وفي الدعوات ، وهو يبين لنا ما كان يلبسه النساء من أزياء ، وما يضعن فوق وجوههن من ألوان وأصباغ ، وما يرتديه الفلاح من خرق وأسمال ، وما تكابده الطفولة المشردة من يأس وبؤس ، وما يعانيه العامل من عنيت وإرهاق ، وما يلجأ إليه المتسولون من أساليب حديثة في الاستجداء .

لو أنك قرأت كتب « البشرى » وتمعننت في القراءة لاستطعت أن تخرج منها بصورة صادقة عن الحياة الاجتماعية قلما تجدها عند كاتب آخر ، وقلما تجد واقعيتها وصدقها عند أديب آخر ، على النحو الذى سنفصله عند الحديث عن : « البشرى » الأديب العصرى .

والواقع أن الحياة الاجتماعية في عصر « البشرى » كانت ممتعة إلى

أبعد حدود الإمتاع، مفرية بالكتابة إلى أبعد حدود الإغرام، فالأفراح
مثلا كانت منتشرة في القاهرة وأنحاء القطر بسبب الرخاء ورغد
العيش قبل الحرب العالمية الأولى، وكان القوم يتناسون المناسبات
لإقامة الأفراح التي يحييها كبار المطربين، وكان الدخول إليها مباحا
لحبي السماع، وبخاصة المقربين من المطرب، وكان شارع الموسيقى
الشارع الرئيسي الشعبي، يسوج بمختلف الناس في أزياء شتى (١)
وقليلا ما كان يعلن عن حفلات الزواج في الصحف، اللهم إلا حفلات
الأثرياء والأعيان، أما بقية الأفراح فكان مصدر الاعلان عنها
(باعة اللب) و (المطيباتية) الذين كان لديهم أخبار السهرات ومن
بها من المطربين، وقلما كانت تخلو ليلة من مطرب أو مطربين مما
أشاع البهجة والانس في أنحاء العاصمة، ولا تزال مصر تذكر أفراح
الأنجال التي أقيمت بها في سنة ١٨٧٣ فقد استمرت أربعين يوما،
عشرة منها لكل عرس. وكان يحيي الأفراح الكبري عبده
الحولي، وألمز، وترقص فيها أشهر الرقصات مثل: صفيحة، وعائشة
الطويلة وغيرهما (٢) ..

وكانت ليالي رمضان من أروع ليالي السنة وأجملها حيث القوم
يتنبدون ويتسامرون ويستمعون إلى أشجى الألحان وأعذب
الأنغام وأبدع الترانيم في مدح الرسول .
وشهدت مصر في عصر «البشرى» مطلع حركة فنية مباركة

(١) Au Pays du Christ Par Paul Lau fer P. 20

(٢) الأهرام ٧٥ سنة من تاريخ مصر ص ٧٥ .

وأخذت (الأجواق) السورية ترد على مصر فرقة إثر فرقة وكانت فرقة سليم نقاش أول فرقة صرح لها بالدخول إلى مصر في شهر ديسمبر عام ١٨٧٦ وكانت مكونة من ١٢ ممثلاً و٤ ممثلات ، وترأس يوسف خياط هذه الفرقة بعد انسحاب سليم النقاش وأديب اسحاق ، وحضر إلى الاسكندرية في ٢٣ يونيو عام ١٨٨٤ جوق كبير من الممثلين للروايات العربية ويدير أعماله الشيخ أبو خليل قباني الكاتب المشهور ، وظهر في الأفق الفني عبده الجولي والشيخ سلامة حجازي ، وكان عبده الجولي من أساطين الفن في هذه الفترة وقد نصح اسكندر فرح والشيخ القباني بالذهاب إلى مصر عندما قابلهما في دمشق صيفاً وكانت له مدرسة شرقية ممتازة في الموسيقى والغناء ، أما الشيخ سلامة حجازي فقد بدأ عمله في فرقة اسكندر فرح للتمثيل ، غير أنه لم يلبث ان انفصل عنه وكون فرقة مستقلة وجوقاً تام المعدات من رخامة الأصوات وحسن الإلقاء وبراعة التمثيل (١) ..

وضم الشيخ سلامة حجازي إليه فناً آخر هو الشيخ عبده الله عكاشة الذي كان مساعداً له في الإلقاء والتلحين . وكون الأستاذ جورج أبيض فرقة الأولى للتمثيل عام ١٩١٢ وانضم إليها بعض الشبان أمثال عبد الرحمن رشدي وفؤاد سليم وحسن ، ثابت وبنغ نجم السيدة منيرة المهدية في الربع الأول من القرن العشرين ، وظهرت

(١) الأهرام ٥ مارس ١٨٨٨ .

فى عالم الطرب عام ١٩٢٢ تنشد القصائد النبوية . ولم تلبث أمام
الاعجاب بفنها وعذوبة صوتها أن نهجت طريقاً جديداً فى
الأداء والتخت والنزود من الموسيقى الشرقية على أساتذة الفن
المعاصرين أمثال المرحومين محمد العقاد والشيخ أبو العلا .

ولمع نجم الشيخ سيد درويش بعد السكرانين الصداحة أمثال
عبده الجولى وسلامة حجازى ومحمد عثمان فاستطاع بألحانه أن يعبر
عن النفس المصرية الخالصة وجرى بالغناء نحو الواقعية وصور
خبايا القلوب وخبايا الصدور

وظهرت مسرحيات غنائية أخرى كتبها محمد تيمور مثل
العشرة الطيبة ، وعبد الستار أو الهاوية ، ومسرحيات لبراهيم رمزى
مثل الأخشيذ ودخول الحمام ، وصرخة الطفل . ومسرحيات لعباس
علام مثل الشريط الأحمر ، وشقاء العائلات . ومسرحيات لحسين
رمزى مثل الضحايا ، وطريد الأسرة (١) .

وتكونت بعد ذلك فرقة عبد الرحمن رشدى ويوسف وهبى
ونجيب الريحانى وغيرها من الفرق ، وتآلق نجم محمد عبد الوهاب
وأم كلثوم فى سماء الغناء والطرب .

ولقد أعطانا «البشرى» صورة صادقة معبرة عن بعض أعلام

(١) المسرحية فى شعر شوقي للأستاذ محمود حامد شوكت ص ٢٦

الموسيقى والغناء ، وعن تقاليد الفن المتبعة في هذا العصر ، فانزع منا العجب والاعجاب ، كتراجمه عن سلامة حجازي وسيد درويش ومحمد العقاد وغيرهم .

وشهد العصر الذي عاش فيه «البشرى» قضية المرأة تصعد على مسرح الحياة الاجتماعية . فكتب «البشرى» عن هدى شعراوي وأيدها في حركتها الناهضة وتمنى لها النجاح والتوفيق ، غير أنه تمكّم في كثير من المناسبات على النساء اللاتي أسرفن في تبرجهن وخرجن عن حد اللياقة والاحتشام .

وتعتبر الأميرة نازلي فاضل أول سيدة في مصر فتحت صالونها لاستقبال سياسة مصر وأدبائها ، وتعد من واضعي دعائم النهضة النسائية في مصر ، وقد أوحى إلى قاسم أمين بتأليف كتاب (تحرير المرأة) الذي كان حدثاً مدوياً في تاريخ الإصلاح ، وشغل الصحافة فترة طويلة من الزمن بين التأييد والمعارضة ، وانبرى له بعض الكتاب نقداً وتفنيداً مثل محمد طلعت حرب في كتابه (تربية المرأة والحجاب) والسيد عبد الله جمال الدين قاضي قضاة مصر عام ١٩٠٠ في كتابه (الحجاب) وعبد المجيد خيرى في كتابه (الردالمبين على قاسم أمين) .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل « كان ظهور كتاب تحرير المرأة حادثاً ، بل حادثاً خطيراً اضطربت له آراء الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم ، وأبدى الخديو عباس مخطئه على الكتاب

ومؤلفه، حتى لقد أمر بأن لا يدخل قاسم أمين قصر عابدين مع ما كان له من رفعة المركز في القضاء، ثم نشر قاسم أمين بعد ذلك رداً على خصومه في كتاب (المرأة الجديدة) ^(١) فكان كتابه الثاني قبلة أخرى في الحياة الاجتماعية، ودفع الناس مرة أخرى إلى التفكير، وكان أكثرهم يرى أن في الكتابين نغروا على الدين وتمهيداً للإصلاح، بينما كان بعضهم يرى أنهما حق وأنهما الوسيلة الوحيدة لخلق شعب يدرك الحياة إدراكاً صحيحاً.

وقد ظلت المرأة تكافح وتجاهد حتى تكون الاتحاد النسائي عام ١٩٢٣ وتزعمت الاتحاد بما لها وجاهها ونشاطها المغفور لها السيدة هدى هانم شعراوي التي لم تأل جهداً في سبيل الدفاع عن قضية المرأة، فحاضرت ونشرت في الصحف، وأسست بناء خالداً ومستشفى ومدرسة لتعليم الفتيات الحياكة والتطريز.

وكان للاتحاد النسائي حظ وافر وشرف كبير بأن قدم للجمهور أولى الخريجات المصريات في الطب والمحاماة والآداب والطيران والحصانات على دبلومات من مختلف الكليات، وبما تحقق من برنامج الاتحاد تقرير السادسة عشرة سنناً أدنى لزواج البنات، ليتسنى لها تكوين عقلها، وتحصيل قسط مناسب من الثقافة والتعليم قبل مباشرتها الحياة الزوجية والاضطلاع بواجب الأمومة، وخوض معركة الحياة الاجتماعية. وكذلك وفق إلى بعض نظام الأحوال

(١) مذكرات هبكل السياسية ص ٢٤ .

الشخصية فيما يتعلق بنظام الخطبة والزواج لتهيئة الجو المصالح للأسرة واستقرار الحياة الزوجية ووضع حد لفوضى الطلاق حفظاً لكيان الأسرة ومنعاً من إنهيارها .

وفق الاتحاد النسائي إذن إلى معالجة كثير من الأدواء الاجتماعية التي سيخر منها «البشرى» ودعا إلى معالجتها وقد سجل «البشرى» في حديثه مع هدى شعراوي رائدة النهضة النسائية ومؤسسة الاتحاد النسائي إعجابه بدعوتها ووصفها بقول الشاعر^(١):

ولو كان النساء كما رأينا لفضلت النساء على الرجال

وقد ظهرت في المجتمع المصري في عهد «البشرى» نزعة قوية ألا وهي المشاركة الوجدانية للبائس والفقير والمحروم ، والغيرة على الطبقات البائسة^(٢) والطفولة المشردة والعامل الأجير والفلاح المسكود ، وقد برزت هذه النزعة بشكل ملموس عقب الحرب العالمية الأولى لما سببته للشعوب من أزمات اقتصادية شديدة ، ولذلك وجدنا شوقي في شعره كما وجدنا حافظ إبراهيم يصوران هذه النزعة أصدق تصوير ، ويعيد «البشرى» من أروع الكتاب النادرين في هذا المضمار . فالبشرى يكتب عن الطفولة المشردة والفلاحين والعمال وغير ذلك من طبقات الشعب على النحو الذي فعله حافظ في شعره ، فقد

(١) المرأة ص ١٣١ .

(٢) الاتجاهات الأدبية في الأدب العربي الحديث ، للأستاذ أنيس الحوري

المقدس ص ٢٣ .

دعا محافظ إلى الاحسان والرافة بالآيتام ، والعطف على جمعية إعانة
العميان ، وما إلى ذلك من المشروعات الاجتماعية الكثيرة .

تأمل ما يقوله في رعاية الأطفال الحيارى :

شبيحاً أرى أم ذاك طينف خيال لا بل فتاة بالعراء خيال
أمتت بدرجة الخطوب فمالها راع هناك وما لها من والي
حسرى تكاد تعيد فحمة ليلها نارا بأنات ذككين طوال
ثم تأمل ما كتبه « البشرى » في الطفولة المشردة :

« نأكلو الأجسام ، بادو العظام ، حتى كأنما شدت الجلود عليها
شد أفلم تفسح بينها لغير العروق مسلكا ، وهذه وجوه مخبرة كأنها
بعثت لتوها من جدث ، وهذه عيون حيارى لا تكاد تقع على شيء
حتى تتحول بسرعة خشية أن يعتريها المكره من الناحية الأخرى
فهى فى فزع دائم وروع مقيم ... هى أشباح تغدو وتروح كأنها
أضغاث حلم ثقيل وكثيراً ما تسمع منها سعالاً ينبئك عما
يمزق الرئة ويتطلع منها إلى الضلوع (١) . »

وتمثلت هذه النزعة الاجتماعية فى الأدب الحديث عند شوقي
كذلك ولسكنه كان يجارها مجارة لأنه ربيب النعمة والرخاء ، غير
أنه التقى مع « البشرى » فى ناحية أخرى وهى تناوله بالشعر بعض
أعلام الأدب والفن مثل محمد المويلى وعبد الحمولى وسلامة
حجازى . . فشوقي يقول فى محمد المويلى :

(١) قطوف ج ١ ص ١١٩ .

كاتب محسن البيان صناعة استخف العقول حينما يراعه
إبن مصر وإنما كل أرض تنطق الضاد مهده ورباعه

سيد المنشئين حث المطايا ومضى في غيبساره أتباعه
حطهم (بالإمام) للهوت ركب يتلاقى بطاؤه وسراعه
وشوقى يقول فى عبده الحمولى :

ساجع الشرق طار عن أوكاره وتولى فن على آثاره
غاله نافته الجناحين ماض لا تفر النور من أظفاره

فجع الناس يوم مات الحمولى بدواء الهموم فى عطاره
بأبى القرن وابنه وأخيه القوى المكين فى أسراره
وشوقى يقول فى سلامة حجازى :

ياثرى النيل فى نواحيك طير كان دنيا وكان فرحة جيل
لم يزل ينزل الخنائل حتى حل فى ربوة على سلسبيل

أين صوت كأنه زنبق الخلد على فرع السرى الأسيل
أين فى مسمع الزمان أغنان عليهن روعة التمثيل
أين صوت كأنه رنة البابل فى الناعم الوريث الظليل
وشوقى يقول فى سعد زغول :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عاليا فبكاه

ليتني في الركب لما أفلت (يوشع) همت فنادى فثابها

يارفاتا مثل ريحان الضحى كلات (عدن) بها همام رباها
وبقايا هيكل من كرم وحياء أترع الأرض حياها
وقد تناول «البشرى» في مرآته ومختاره هذه الشخصيات بأسلوبه
العذب الطريف فأبداع كل الإبداع .

وإذا كان «البشرى» قد اتفق مع شوقي في هذه الناحية ، ناحية
تناول الشخصيات البارزة في ذلك العصر ، فكذلك اتفق مع حافظ
في هذا إلى جانب النزعة الاجتماعية التي برزت في أدب حافظ بروزا
يستلقت الأنظار لما اكتنف حياته من صنوف البؤس والحرمان
على النحو الذي ذكرناه آنفاً .

يقول حافظ في محمد محمود الذي تناول «البشرى» شخصيته
في المرآة - عندما نال درجة الدكتوراه الفخرية من
جامعة أكسفورد :

شرف الرأسه يا محمد زانه شرف النهى
يردان من نسج الجلال ل إليهما الفخر انتهى
زانتك ألقاب الرجال العاملين وزنتها
ويقول حافظ في المغفور له الدكتور علي إبراهيم الجراح
الشهير عندما أجرى عملية لمحمد محمود «باشا» :

أيا يداً قد خصها ربها بآية الإعجاز في الخلق
ومشرطاً جمع من رحمة وصيغ من يمن ومن رفق
نجيتما من مرض قاتل مطلع آمال بني الشرق
لولا كما لاندك صرح العالا وانحدر البدر عن الأفق
ويقول حافظ في محمد المويحيى عند تأليفه كتاب عيسى بن هشام :

قلم إذا ركب الأنامل أو جرى سجدت له الأقلام وهي جوارى
يختال ما بين السطور كضيفم يختال بين عوامل وشعار

~ ~ ~

يابن الذي غنى اليراع بكفه فصبت إليه مسامع الأقدار
لك في دمي حق أردت وفاءه يوم الوفاء فقصرت أشعارى
وكل هذه الشخصيات تناولها «البشرى» في كتبه، ولسنا الآن في معرض المقارنة بين البشرى وحافظ وشوقي، أو بين أسلوب كل منهم لما بين النثر والشعر من فروق معروفة في الأدب، إنما يكفي أن نقول إن البشرى تناول هذه الشخصيات بطريقة خاصة ساخرة لاذعة (كاريكاتورية) إن صح هذا التعبير، بينما تناول كل من شوقي وحافظ هذه الشخصيات تناولاً يختلف كل الاختلاف عن «البشرى» وإن اتحد الطرفان في الموضوع.

وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن أدب «البشرى» كان صورة لعصره، وصورة للمجتمع الذي يعيش فيه، ولم تكن

تفوته الفرصة في الحديث عن الرجال البارزين وأعلام الأدب والفن في هذا العصر الذين أدوا للمجتمع أجل الخدمات في مختلف الميادين.

البيئة الثقافية :

إذا أردنا أن نتحدث عن البيئة الثقافية التي عاش فيها «عبد العزيز البشري» فلا بد لنا من أن نعطي القارئ صورة عن هذه البيئة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

وكان التعليم الديني في الربع الأخير من القرن التاسع عشر يكاد يكون التعليم الأول لشباب ذلك العصر ويقوم عليه الأزهري الشريف وما يتصل به من المعاهد المنبثقة في القاهرة والأقاليم .

وهذا التعليم على حد تعبير الدكتور طه حسين :

«رسمي تشرف عليه الدولة لأنها تنفق عليه من الخزانة ومن أوقاف المسلمين؛ ولأنها تنظمه بما تصدر من اللوائح والقوانين. ولكنه كان إلى عهد قريب منحازاً عن الحياة العامة قد انصرف إلى نفسه وانصرفت الدولة عنه ، ومضى في طريقه لا يكاد يخضع لمراقبة أو ملاحظة، وكانت صبغته الدينية وما زالت تحميه إلى حد بعيد من تدخل السلطان المدني، وكان إقبال الناس عليه وما زال عظيماً، وهو بحكم طبيعته

وبيئته ومحافظة القائمين عليه وخضوعهم بحكم هذه المحافظة لكثير من أثقال القرون الوسطى وكثير من أوضاعها يصوغ التلاميذ والطلاب صبغة خاصة مخالفة للصبغة التي ينتهجها التعليم المدني بحيث يعرض الأمر من الأمور أو الوقعة من الوقعات فإذا الأزهري يتصوره على نحو، وإذا الشاب المدني يتصوره على نحو آخر، وإذا هذا وذاك لا يتفقان في التفكير والتقدير ولا يتفقان في الحكم والرأي ولا يتفقان في السيرة والعمل (١) .. !

سلك «البشرى» هذا اللون من التعليم غير أنه كان يختلف عن تلك الحال التي صورها الدكتور طه حسين في كتابه، فلم يكن يرضى بالتقاليد البالية، والأوضاع السقيمة التي فرضها التعليم الديني على طلابه فرضاً، فالتمس الأدب حينها وجد وأينما كان، واتصل بأعلامه وقادته، وعكف على كتب الأدب ينهل منها ما شاء له الله من علم ومعرفة.

ولم يسلك «البشرى» سبيل التعليم المدني الذي أخذ ينتشر شيئاً فشيئاً منذ مستهل القرن العشرين وكان عدد المدارس الأميرية في عام ١٨٩٣ (١٧) مدرسة، منها سبع مدارس عمالية وخصوصية مثل المهندس خانة والحقوقي ودار العاوم، ثم الفنون والصنائع، وكان بها جميعاً ٣٥٩ طالباً، وتغذيها ثلاث مدارس ثانوية، هي الخديوية

(١) مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين ج ٢ ص ٧٦ .

والتوفيقية ورأس التين، وكان عدد التلاميذ بجميع مدارس التعليم الابتدائي التابعة للنظارة ١٥٠ تلميذا .

وكان ناظر المعارف في عام ١٨٩٢ محمد زكي باشا ، ووكيلها يعقوب أرتين باشا، وكان يمثل سياسة الاستتال شاب اسكتلندي يدعى (دجلس دانلوب) عين مفتشاً في النظارة ثم رقي بعد ذلك سكرتيراً عاماً لها ثم مستشاراً .

ورغم أن « البشرى » لم يسلك هذا التعليم المدني فإننا نراه يري لحاله عندما تمكن منه دنلوب كل التمكن فيقول :

« أما لغة العلم فلقد دهاها من السياسة ما دهى ، فإن (دنلوب) ما كاد يقبض على زمام التعليم في المعارف وينفرد بالسلطان حتى جعل يحيل لغة العلوم إلى الانجليزية ، وتم له ذلك في المدارس الثانوية . و امر قد تمهياً له أن يدرس الطلاب قواعد العربية نفسها بالانجليزية أيضاً لما أعوزه الإقدام . . . ١١١ ، (١)

وقد كانت لدانلوب سياسة خرقاء في التعليم ترمى إلى إقصاء اللغة الفرنسية من التعليم وإحلال اللغة الانجليزية محلها ، ثم إلغاء اللغة العربية كلغة للتدريس في التعليم الثانوي والابتدائي حتى أصبحت مجرد لغة تدرس لذاتها ، ثم إلغاء نظام المجانية في التعليم تدريجياً ،

(١) الهلال ص ٦٤٤ عام ١٩٣٧ .

ولسكن هذا الوضع لم يتبع له أن يستمر أو يعيش أمام الوعي القومي فلما تولى سعد زغلول نظارة المعارف تقدم من فوره بدراسة العلوم بكل ما يتسع له الذرع بالعربية ، وخلفه على نظارة المعارف أحمد حشمت باشا ، وحذا حذوه في حياطة اللغة العربية وحضانتها . وكان من توسعه أن أنشأ في نظارة المعارف قلياً للترجمة في شتى العلوم والفنون وعقد رئاسته له .

وارتفعت ميزانية الدولة في التعليم عام ١٩٠٧ إلى ٣٧٤ ألف جنيه بعدما كانت في عام ١٩٠٥ (٢١٤) ألف جنيه ، فلما تولى عدلى يكن وزارة المعارف عام ١٩١٤ كانت ميزانية التعليم ٥٥١ ألف وأخذت ميزانية التعليم تضطرد في النمو شيئاً فشيئاً إلى أن تولى وزارة المعارف في مارس عام ١٩٢٥ على ماهر باشا ، فبلغت الميزانية مايو نين و ٩١ ألفاً من الجنيهات نظراً لتوسعه في فتح المدارس وإيفاد البعثات العلمية إلى أوربا ومنحه المجانية للمتفوقين .

وشهد البشري ، افتتاح الجامعة المصرية ولم يتبع له أن ينتظم في سلسكها ، ولسكنه مع ذلك اختلط بأساتذتها وطلابها القدامى ، مثل لطفي السيد وطه حسين وزكى مبارك وتأثر باتجاهاتهم في التفكير وجنوحهم إلى الارتواء من معين الثقافة الأوروبية ، وحاول أن يقلدهم في ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى بدا أثر الثقافة الفرنسية في أسلوبه في بعض الأحيان .

وليس من شك في أن الجامعة المصرية أو جامعة فؤاد الأول

كما سميت بذلك في ١١ مارس سنة ١٩٢٥ قامت بدور خطير في نشر الثقافة في القرن العشرين ، فإنه لما اشتدت قوة الحركة الوطنية في أوائل هذا القرن شعر أفراد من خاصة المصريين بنقص نظم التعليم في جميع طبقاته ووردوا لو نشأت في مصر حركة قوية تدعو إلى التعليم الأولي وإصلاح التعليم الثانوي والعالي ، وشعروا بأن حاجة الأمة إلى علماء راسخين في العلم ، ليست بأقل من حاجتها في الأزمان السابقة إلى متعلمين عاملين ، وأنه قد حان الوقت لتخرج شبيبة تأخذ بيد الأمة فتحلها المقام الذي يجب أن يكون لها بين الأمم الراقية. وكذلك شعروا بمجيء اليوم الذي تقضي فيه الضرورة على الشبيبة المصرية بورود مناهل التربية العلمية المحضنة في نفس القاهرة دون أن تغرب في ربوع العلم التي نالت بفضلها مكانة عالية في العمران. وكذلك شعروا بالحاجة إلى التمتع بشرات العلم الحر الخالص من كل قيد، فنشأت فكرة الجامعة المصرية من ذلك الشعور ، وسرعان ما اكتتب الناس بالأموال واشتركوا في تأسيس هذا المعهد ، ولم تتردد الحكومة في إمداده بالإعانة المالية وأسرع العرش ، إلى تشجيعه ، ولم تسكد تفتتح الجامعة أبوابها للناس في سنة ١٩٠٨ حتى غصت بالطلاب والمستمعين من كل طبقة ومذهب ، ومن كل سن وجيل ، وقد كان ازدحام الناس شديداً على هذا المعهد حتى اضطر الأساتذة إلى أن يلقوا محاضراتهم مرتين ومرات ليتمكنوا من إسماعها لهذا الجمهور الذي كان يضيق به المكان على سعته ورحبته

كما جاء في العريضة التي رفعها أعضاء مجلس إدارة الجامعة المصرية إلى « الملك » فؤاد في ٧ يونيو عام ١٩٢٣ (١) .

وطبعت الجامعة الثقافة المصرية بطابعها ووجدنا فكرياً خالصاً متحرراً من كل قيد لا يرسف في الأغلال التي فرضها أرباب التعليم البائد على الفكر فضلاً .

وفي هذا الجو عاش «البشرى» ، وألنى حوله المعايير تتغير ، والقيم تتبدل وتتحول ، والعقل البشرى يسير نحو التطور .

فأراد أن يشارك الفكر الحديث في نموه وإطراده مما ظهر في كتاباته في وضوح وجلالة .

وساعدت على انتشار الأفكار الحديثة مدرسة أدباء المهجر فإنه قد نشأت جالية سورية في أمريكا في العقد الثامن من القرن الماضي وأخذت في النمو والاتساع حتى أصبح عددها حوالى نصف مليون ، وتسكونت جمعيات أدبية عربية في أمريكا مثل (الرابطة القلمية) التي كان يرأسها خليل جبران ومن أعضائها مينخايل نعيمية وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة ورشيدة أيوب و (العصبة الأندلسية) التي كان من أعضائها ميشيل معلوف ورشيد الخوري و شفيق المعلوف ، وامتازت هذه المدرسة ، وأعني بها مدرسة أدباء المهجر ، بالقوة والتجديد والثورة على القديم ، والتفكير الفلسفي

(١) « الأمير » فؤاد ونشأة الجامعة المصرية ، لأحمد عبد الفتاح بدير ص ٣١٠ .

وطفت على كتابة كثير من الكتاب في مصر ، مثل المنفلوطي ومي زيادة والرافعي وحسين عفيف ومس «البشري» منها رشاش، غير أن بعض كبار الكتاب لم يطمئئوا إليها مثل هيكمل الذي نشر في السياسة الأسبوعية (١) مقالاً يقول فيه :

« يجب أن يتعاون المجدد والمقلد منا وإلا بقي الفوز في جانب السوريين المتأمركين وامتت الثقافة الإسلامية » .

ولكن مجمع اللغة العربية «الملكي» الذي أنشئ في ٣ ديسمبر عام ١٩٣٢ قام بدور كبير في حفظ مقومات الثقافة العربية من العناصر الدخيلة وأهم أغراضه : المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحديث، وأن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة، وأن يبحث في كل ماله شأن في تقدم اللغة .

وعمل «البشري» في المجمع كما سنفصل في سيرته فترة طويلة من حياته ليس من شك في أنها أثرت كل التأثير في ثقافته واتجاهه الأدبي .

والواقع أن «البشري» غير غريب على مجمع فؤاد الأول للغة العربية

(١) السياسة الأسبوعية عدد ٤٠٢ عام ١٩٣٠ .

كما سمي بذلك في ٧ أغسطس عام ١٩٣٨ بمرسوم ملكي بمسماه
أن كان اسمه مجمع اللغة العربية بالملكي، فقد كان أبوه الشيخ سليم
البشرى رئيساً للمجمع لغوى عام ١٩١٧ مركزه دار الكتب المصرية
ووكيله الشيخ محمد نجيت، وسكرتيره أحمد لطفي السيد «بك»، ومساعد
السكرتير السيد محمد البيلاوى، وقد عقد هذا المجمع جلسات عدة
عن كيفية وضع مجمع لغوى يفي بحاجة العصر الحديث، ثم نظر في
بعض المشكلات العامة والدخيلة التي رأى إرجاعها إلى أصول عربية.
وما أن حلت سنة ١٩١٩ حتى توقفت أعمال المجمع وظلت الفكرة
تراود الأذهان مرة أخرى لافتتاح مجمع لغوى أو استئناف نشاط
المجمع القديم حتى صدر المرسوم الملكي بإنشاء مجمع اللغة
العربية الملكى .

ولا يمكن أن ننكر أثر دار الكتب المصرية في تكييف البيئة
الثقافية في عهد البشرى، وقد كان الشيخ سليم البشرى كما قلت رئيساً
لمجمع لغوى عام ١٩١٧ مقره هذه الدار، وقد وجد «البشرى» من ذلك
سبباً قوياً يربطه بهذه الدار التي كان يرتادها بين الحين والحين يتشقف
ببعض ما فيها من كتب ويطلع على بعض ما فيها من أسفار .

ويرجع الفضل في تأسيس هذه الدار رسمياً إلى جهود المرحوم
على مبارك، فإنه لما رأى أكثر المخطوطات النفيسة التي حبسها المؤلفون
والعلماء، ووقفها السلاطين المالكي والأمراء وأهل البر على المدارس

والجوامع والأضرحة وغيرها من المشاهد يتسرب إلى الديار
الأوربية والبلاد الأمريكية عرض على سمو الخديوى اسماعيل جمع
الكتب التى بقيت ، فوافق سموه وأصدر إرادته السنية إليه فى ٢٠
ذى الحجة عام ١٢٨٦ (٢٣ مارس ١٨٧٠) لتأسيس المكتبة
الخديوية المصرية .

وكان هذا الجمع بدمه تأسيس دار الكتب وبلغت عدة ما جمع
من الكتب يومئذ نحو العشرين ألف مجلد ، وجعل مقرها بالطابق
الأرضى تجاه السلامك بسراى المرحوم مصطفى فاضل « باشا » بدرب
الجامين بجوار المدارس . وفى ١٩ أبريل عام ١٩٤٠ صدر أمر عال
رقم ٨ بإصلاح دار الكتب الخديوية وتنظيم شئونها من الوجهة
المالية والوجهة الإدارية جميعاً . فعهد بالأولى إلى وزارة المالية ، والثانية
إلى مجلس أعلى ينعقد برئاسة وزير المعارف ، وبدأ المجلس الأعلى
جلساته فى ٣٠ أكتوبر عام ١٩١١ وبناء على المنصوص فى اللائحة
أصبح من حق المجلس الأعلى الإشراف على مشروع إحياء الكتب
العربية مثل كتاب «صبح الأعشى للقلقشندي» وطبع فى أربعة أجزاء
فى مطبعة بولاق وكتاب « الأحكام فى أصول الأحكام للأمدى »
وطبع فى أربعة أجزاء بمطبعة المعارف وكتاب « الطراز المتضمن
لأسرار البلاغة » وطبع فى ثلاثة أجزاء بمطبعة المقتطف وكتاب
« الاعتصام للشاطبي » وطبع فى ثلاثة أجزاء بمطبعة المنار وكتاب
« الخصائص فى اللغة لابن جنى » وطبع فى مطبعة الهلال .

وقد قدمت دار الكتب بعد ذلك خدمات عظيمة للعلم بطابع كتاب « الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني » وكتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى » وغيرهما من الكتب القيمة .

وبلغ من اهتمام «عبد العزيز البشري» بهذه الدار أن طالب إليه عام ١٩٢٧ ، وكان وقتذاك سكرتيراً برلمانياً لوزير المعارف، أن ينقح كتاباً صغيراً عن دار الكتب فقبل ذلك الطالب عن طيب خاطر، ونقح هذا الكتاب المسمى (دليل موجز لزمائر دار الكتب المصرية) لمؤلفه توفيق إسكاروس الموظف أو المخير بدار الكتب المصرية، كما نقح كتاباً آخر فى الطباعة ألفه الأستاذ محمد زكى خليل الموظف وقتذاك بالمطبعة الأميرية ومدير مطبعة جامعة القاهرة حالياً .

وإن المتتبع لتاريخ الثقافة فى العصر الحديث يلاحظ أن إنشاء الإذاعة المصرية قام بدور خطير فى هذا المضمار ونقل الثقافة الغربية إلى مصر وألغى الزمان والمكان إلغاء . وقبل أن تؤسس محطة الإذاعة الحكومية فى ٣١ مايو ١٩٣٤ كانت هناك محطات أهلية مثل محطة (الأمير فاروق) ومحطة (راديو فيولا) ومحطة (راديو القاهرة) ومحطة (راديو وادى الملوكة) ومحطات أخرى أكمات العدد إلى إحدى عشر محطة . ولكن صاحب كل محطة تلقى فى ١٥ مايو عام ١٩٣٤ خطاباً تعلنه فيه الحكومة بأن يكف عن الإذاعة ابتداء من أول مايو .

وأدت هذه المحطات الأهلية، كما أدت المحطة الحكومية، للثقافة خدمة جليلة زادت على الأيام نماء وقوة . وقد كان «البشرى» من رواد الإذاعة في محطاتها الأهلية ومحطاتها الحكومية ، ووجد فيها مجالا ينشر منها نشاطه ويندفع فيها أدبه .

وتألف في عهد «البشرى» كثير من الجمعيات الثقافية والأدبية التي كانت تدعوه إلى إلقاء محاضرات أو أبحاث بين رحابها فساعدت هذه البيئة الثقافية على ذيوع أدبه وانتشار فضله في البلاد .

وإذا ألقينا نظرة إلى الصحافة في القرن العشرين ووجدناها تزدهر مع الأيام ، ويكثر عدد الصحف والمجلات ، وتصبح معرضاً لأراء المصريين ومطالبهم الوطنية وأهدافهم القومية، حقاً لقد كانت الصحف تكبت حريتها في بعض الفترات أو تصدر أو تصاب بالإغلاق والتعطيل ، ولكنها كانت رغم هذا كله ترجماناً صادقاً لآمال الشعب وأهدافه الوطنية .

وكذلك نمت الصحافة الأدبية إلى جانب الصحافة السياسية وارتفع شأن الهلال والمقتطف ووجدنا «البشرى» يدمج مقالاته ونحواطره فيهما بين الحين والحين ، وتألفت لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩١٤ وأصدرت مجلة الثقافة عام ١٩٣٩ فوجد «البشرى» فيها مجالا لنشر مقالاته، كما وجد في الرسالة من قبلها ، وفي السياسة الأسبوعية وغيرها من المجلات والصحف كجريدة الأهرام والمصري هذا المجال .

وجملة القول أن انتشار الصحف والمجلات ونهضة الصحافة وعوار كعب البيئة الثقافية في عهد «البشرى» قد أثر في عقلية وتفكيره واتجاهه الفكري وإنتاجه الأدبي، وليس هذا بغريب فالإنسان ابن البيئة .

وعندما نلقي النظر إلى الأساليب والمؤلفات والتراجم التي ظهرت في عهد «البشرى» نعرف مدى النهضة الفكرية في هذا العهد، وتأثر «البشرى» بالبيئة الثقافية محوله . كما نعرف مدى تأخر بعض الأساليب الأخرى ونفور «البشرى» منها .

والواقع أن النثر العربي ظل طيلة القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين يجرى على أسلوب الجبرتي في الكتابة الأدبية، أما في الكتابة الصحفية فقد وجد تحرراً من هذا الأسلوب عند أديب إسحاق ومحمد عبده وعبد الله نديم وجمال الدين الأفغاني وأضرابهم .

وكان أسلوب الجبرتي ينحصر في سجع محفوظ الفواصل والقوافي، يتردد على كل قلم، ويزج في كل موضوع، ثم ارتقى إلى سجع يتكرر كثيراً أو قليلاً من ألفاظه وقوافيه، كالسجع الذي نقرأه في كتاب عيسى بن هشام للمويلحي الصغير، ثم انطلق في أسلوب منسق معتدل لا تلتزم فيه الاسجاع والقوالب، كالأسلوب الذي يختاره المويلحي أو المنفلوطي في النثر المرسل، ثم تعددت الأساليب واختلفت باختلاف

الأفراد والموضوعات (١) كما يقول الأستاذ عباس العقاد .

ولعل هذا التحرر الذي طبع الأسلوب جاء نتيجة لظروف الحياة في تلك الفترة، فقد أرادت ظروف الحياة أن يهاجر السوريون إلى مصر وأن تصبح مصر مستقر الحياة العقلية في الشرق كله . وكان السوريون أول من ثاروا على القديم ، والأسلوب المعتمد على السجع والاستعارة وألوان البديع والبيان، وكذلك فعل الصحفيون المصريون مثل سعد زغلول ومحمد عبده وعبد الكريم سلمان .

ومن هنا نستطيع أن نلاحظ أن النتيجة القيمة التي جاء بها القرن الماضي في النثر العربي إنما هي إطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية (٢) .

والواقع أن «البشرى» لم يستطع الخلاص كل الخلاص من آثار هذه المدرسة القديمة، ولكنه لم يخضع لها خضوعاً ولم يستسلم إليها استسلاماً إنما حاول أن يتكيف بالجو الجديد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وهنا ينبغي أن نسجل حقيقة واقعة وهي أن «البشرى» لم يحرر على تقليد التقليد في الأسلوب، إنما كان يرجع إلى الأسلوب العربي في مظهره الأول . كان يرجع إلى الجاحظ وابن المقفع وابن العميد وأضرابهم، ويحاول أن ينسج على منوال بعضهم في الكتابة . وشتان

(١) الهلال ص ٦٥٢ عام ١٩٣٧

(٢) المقتطف ص ٢٦٢ عام ١٩٢٦

بين نثر البشرى وبين نثر السيد توفى البكرى، فاقراً مثلاً قول البكرى
في وصف الليل في صهاريج اللؤلؤ :

« حتى إذا أقبل الليل وأرخت النيل ، بدا الهلال كأنه خنجر من
ضياء يشق الظلماء ؛ أو قلادة أو سوار غادة، أو سوار لواه الضراب
أو الليل فيل وهو ناب . . . ثم إذا غاب الهلال وتوارى في الحجال
ألفيت السكون في السواد في لبوس حداد وكأنما الماء سماء ، وكأنما
السماء ماء ، وكأنما النجوم دريموج في بحر أو ثقوب في قبة الديجور
يلوح منها النور . . » .

ثم اقرأ ما كتبه « البشرى » في « عبرة العبر » عن طلوع النهار
وهبوط الليل وإشراق الشمس وأفولها ، مستخلصاً من ذلك العبر
الفلسفية التي يحاول أن يقوم بها العباد :

« وهذه الشمس تمشي إلى الغرب في منحدرها كذلك رويداً رويداً
كما تنحدر الشمس في منحدرها ، فاهرم رويداً رويداً حتى إذا كان اصفر لوناً
وبردت السن من جرمها ، جهلت تتدلى في قبرها من مضرب الأفق
مستملة متأنية ، وهكذا تغيب في لحدها غير تاركة من التراث
إلا صمباة من الذهب المذاب سرعان ما تتبخر في حلك الظلام وقد
تترك تراثها الفضى على صفحة القمر يرفد العلم به بعض ليالى الشهر .
تلك سيرة الشمس كل يوم ، ميلاد فتر عرع ففتوة . . . فشباب وفراة
وقوة وكهولة ، فشيخوخة فهرم ، فقدس في النهاية تحت الرجم وسبحان
الحى الذى لا يموت .. ١١ ، (١)

فالبشرى إذن لم يسلك مسلك الأقدمين فى الزخرفة اللفظية
وازدهام الصور البيانية، إنما أعطانا صورة جميلة رائعة كلها حكمة
وفلسفة وإرشاد للعباد فى أساليب سلس جميل .

وتأثر « البشرى » ببعض التيارات الجديدة فى الأدب الحديث
كتيار التأليف والترجمة ، والمعروف أن الثورة العراقية أزكت هذه
الحركة بنوع خاص فى الشعر والكتابة والسياسة . فكان البارودى
ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ، وظهرت عدت مؤلفات
أدبية وقومية واستأنفت الحركة الفكرية سيرها ، وظهر زعماء كبار
مثل على مبارك ، وتوفيق البكرى ، والمويلحى ، وعلى يوسف ، وحفنى
ناصر من جنحت كتبهم إلى القديم وروعته ، ثم تفتحت النهضة
وهبت عليها روح جديدة ، وظهرت جماعة تأثرت بالروح الغربية
مثل قاسم أمين ، وعمر لطفى ، وإسماعيل صبرى ، ولطفى السيد ، ممن يطلق
عليهم المدرسة الحديثة . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى شلت
الحركة الأدبية وشغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية بالسياسة ،
ولسكن السياسة تركت فى الأدب آثاراً لا تمحى ، واستحدثت حياة
أدبية جديدة ، وكانت الخصومة الحزبية سبباً فى قرع الحجب والبراهين
بين كتاب الصحف . وكانت الصحف أدوات صالحة لهذا التنافس
وأخذت تنشر الفصول الطوال مقلدة لصحف أوروبا وأمريكا ، وساعد
رقى الطباعة على نشر الكتب ورفع قيمتها الفنية ، وذيلت الكتب
بفهارس أبجدية ، وقسمت الموضوعات إلى أبواب وفصول ، وتنوعت

أشكال الحروف ، وفصل بين العبارات بأدوات الترقيم المختلفة ،
وتجنب المؤلفون الحشو والتنميق والألفاظ المهجورة .

هذا من ناحية التأليف ، أما من ناحية الترجمة ، فلقد ظهرت في
العصر الحديث محاولات كثيرة للترجمة ، منها ترجمة الإلياذة ، وترجمها
الشاعر المعروف سليمان البستاني ، واهتم بالترجمة عن اللغة الفرنسية
محمد عثمان جلال المتوفى سنة ١٨٩٨ ومحمد مسعود ومارون نقاش
وأحمد حسن الزيات وشكيب أرسلان وطه حسين وغيرهم ، واهتم
بالترجمة عن الإنجليزية محمد السباعي ونجيب حداد وخليل مطران
ومحمد عوض إبراهيم وغيرهم ، وعن الألمانية محمد عوض محمد وسليم
سعادة وجولد علي وإبراهيم ناجي وغيرهم .

وليس من شك في أن الترجمة عن هذه اللغات الأجنبية قد
أثرت كل التأثير في البيئة الأدبية التي عاش فيها « البشرى » ، وفتحت
آفاقاً واسعة أمام الكتاب والمفكرين ، وفتحت مجالات رحبة للتقليد
والتجديد . إلى جانب الاطلاع المباشر على ما نشر في لغات الغرب
من شتى العلوم والآداب (١) .

وليس من شك كذلك في أن البشرى استفاد من هذا كله
وتأثر بهذا كله حتى أصبح كاتباً لامعاً ، وحتى وجدنا أحد الأساتذة
المستشرقين وهو المستر (هيوارث ديون) Heyworth Duane

(١) الانجاء الفنى ، العالم العربى الحديث ص ١٤١

أحد محاضري الأدب العربي في جامعة لندن بين عامي ١٩٢٨ ،
١٩٤٨ يقول عنه في مجلة الشرق الأوسط التي تصدر عن معهد
الشرق الأوسط في واشنطن :

« ومن الأدباء الممتازين في العصور الحديثة المرحوم «عبد العزيز
البشري» نجل سليم البشري من شيوخ الجامع الأزهر ، وكتابه
(المختار) يضم بين دفتيه صوراً كثيرة للحياة المصرية . . . » (١)



(١) راجع المقتطف ص ٣٠١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ .